شؤون اجتماعية
العدد ٥٣
ربيــع ١٩٩٧م
السنة ١٤

المؤثرات الأجنبية في نشوء النحو العربي

صفاء الدين محمد أحمد *

ظهـر علم النحـو العربي في نهـاية القـرن الأول للهـجـرة، لكنه نضـج واكتملت أصوله على أيدي الخليل، ويونس، وسـيبويه، والفراء، والكسائي في القـرن الثاني، وهـم جمـيعاً ممن ولد وعاش في العراق حـيث المؤثرات الثقافية الوافدة من هندية وفارسية ويونانية، والمعروف أن حركة الترجمة لآثار اليـونان بدأت منذ القرن الأول للهجرة بجـهود السريان الذين سبق لهم أن ترجموا هذه الآثار إلى لغتهم.

وفي القـرن الثـاني للهـجـرة ترجـمت بعض كـتب أرسطو في المنطق، واتصل المعـتزلة بها، وتأثرت بها بحوثهم، وانتقل تأثيرهـا إلى الدراسـات النحوية والبلاغية ولكن في الأزمنة المتأخرة.

ولقد كانت البيئة الفكرية وقتها مؤلفة من المتكلمين والفقهاء والمناطقة والنُحاة، وكان طبيعياً أن يُعنى جميع هؤلاء بالتيارات الثقافية الوافدة وخاصة منطق أرسطو. غير أن عنايتهم بها لاتعني عبوديتهم لها، فالمتكلمون مثلاً، اهتموا بمنطق أرسطو، غير أنهم نقدوا المنطق الصوري

* باحث واستاذ بالأزهر الشريف.

«فأبوالعباس الناشئ» المعتزلي نقد المنطق الأرسطو طاليسي كما ورد في مناقشة السيرافي لأبي بشر متَّى بن يونس.

ويبدو أن أصول المتكلمين تختلف عن أصول المنطق الصوري، يدل على هذا أن «يحيى بن عدي» حضر مجلس بعض الوزراء ببغداد في يوم من الأيام، وكان في المجلس بعض المتكلمين، فطلب إليهم الوزير أن يتكلموا مع «يحيى» فرفض قائلاً: «هم لايفهمون قواعد عباراتي وأنا لاأفهم اصطلاحهم».

وكما كان للمتكلمين مواقفهم الخاصة وأصولهم الفكرية مع بعض التأثر بمضمون الفكر المنطقي اليوناني، كذلك كان للفقهاء أصولهم في البحث والجدل والمناظرة قبل طغيان المنطق الأرسطوطاليسي، فأبو حنيفة كان من الذين يشار إليهم بالبنان في علم الكلام، وذلك قبل أن تكثر حركة الترجمة، والإمام الشافعي هاجم وحرَّم المنطق الصوري، واعتمد في ذلك على أنه يستند إلى خصائص اللغة اليونانية، وهي مخالفة للغة العرب، وهذا في رأيه يؤدي إلى كثير من التناقض في تطبيقه، لذلك اعتمد الفقهاء أصولاً مصادرها ملابسات الحياة الفقهية آنذاك، ولكن هذه الأصول امتزجت بالمنطق اليوناني في العصور المتأخرة خاصة في «مستصفى» الغزالي، إذ بين في المقدمة أن من الضروري الإحاطة بالمنطق الأرسطو طاليسي، وجعله شرطاً من شروط الاجتهاد في الفقه، ومن الجدير بالذكر أن الغزالي عاد فارتد عن المنطق اليوناني في كتابه «**المنقذ من الضلال**».

والفئة الثالثة المناطقة الذين اتبعوا أصولاً ومناهج في البحث والجدل والمناظرات والتأليف تختلف عن أصول المتكلمين والفقهاء، ومناهجهم.

في هذه البيئة الفكرية الفنية نشأ الدرس النحوي ووضعت أصوله الكبرى، ويهمنا في هذا البحث بيان مدى تأثر النحو العربي بالمنطق اليوناني الصوري وبعض المؤثرات الاخرى كالهندية القديمة «السنسكريتية».

النحو العربي والمنطق اليوناني.

أما فيما يتعلق بالمنطق الصوري اليوناني فقد اختلف الباحثون حول وجود هذا التأثر أو عدمه، أو التوسط بين الحالتين.

وأما المستشرقون فهم فئة قالت بتأثر النحو العربي بالمنطق اليوناني، ومن هذه الفئة (دي بور) مؤلف «**تاريخ الفلسفة في الإسلام**»، والمستشرق الإيطالي (جويدي). وفئة ثانية أنكرت هذا التأثر وذكرت أن النحو العربي ظهر في عزلة تامة عن المؤثرات الأجنبية، ومنها (ماسينيون)، وفئة ثالثة، آثرت التوسط مثل (إنوليتمان).

وقد انقسم الباحثون العرب أيضاً إلى فئات ثلاث، فمن الفئة الأولى الدكتور (ابراهيم مدكور)في كتابه «**في اللغة والأدب**»، ومن الثانية الدكتور (مهدي المخزومي) في كتابه عن الخليل، ومن الثالثة (أحمد أمين) في «**ضحى الإسلام**».

والذي يهمنا هو الفريق الأول، وتتلخص أدلته في أن السريان درسوا كتاب «**العبارة**» لأرسطو وترجموه، وأن ابن المقفع يمكن أن يكون قد سهل للعرب سبل الإطلاع على ماكان في اللغة الفهلوية من هذه الآثار(١).

وزعم (جويدي) أن تسمية النحاة للمفعول فيه ظرفاً إنما اعتمد على قول أرسطو: «الزمان والمكان كالوعاء للأشياء، إذ لابد لكل شيء مخلوق أن يكون واقعاً في زمان من الأزمنة، وفي مكان من الأمكنة، فهما كالوعاء له»(٢).

وزعموا أن الخليل بن أحمد المتوفي سنة (١٧٥هـ)، كان صديقاً لحنين بن إسحاق الذي ولد سنة (١٩٤هـ)، وهما – كما يبدو جلياً – لم يتعاصرا، فقد مات أولهما قبل ولادة الثاني بعشرين سنة تقريباً، فكيف يتصادقان؟.. ومع ذلك، قال الدكتور (ابراهيم مدكور) في كتابه «**في اللغة والأدب**»: «ومن اليسير أن نتصور أنه قد تبادل مع الخليل بعض القواعد النحوية»(٣).

ثم عمدوا إلى تقسيم الكلام عند سيبويه إلى اسم وفعل وحرف، وتقسيمه عند أرسطو إلى اسم وكلمة وأداة، وزعموا أن التقسيم العربي مرجعه التقسيم اليوناني.

واستدلوا أيضاً بأن سرعة تكوُّن النحو العربي دليل على اعتماده على مؤثر خارجي ساعده على هذه السرعة، كما يقول الاستاذ (عبدالرحمن الحاج صالح)(٤).

وفي كلام الدكتور مدكور عن التقاء سيبويه وأرسطو في تقسيم الكلام، يذكر تعريف أرسطو لكل من الاسم والكلمة والأداة، ويقول: «وهنا ننتقل إلى كتاب سيبويه فنجده يبدأ بتقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف ويعرف الواحد تلو الآخر تعريفاً يحاكي من بعض النواحي التعريف الأرسطو طاليسي»(٥).

وهذا الرأي غير علمي لأن أرسطو ينظر إلى الحد على أنه كاشف للماهية وحدوده جامعة مانعة، بينما سيبويه لم يحدّ شيئاً، بل قال: «فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولافعل، فالاسم رجل وفرس وحائط، وأما الفعل فأمثلته أُخذَت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى، ولما يكون، ولم يقع، وماهو كائن لم ينقطع»(٦).

والذي يمكن أن يقال هو أن النحو العربي في بدايته تأثر بأصول الفقهاء وعلماء الكلام ولم يتأثر بالمنطق اليوناني تأثراً مباشراً. ويمكن أن نستدل بأدلة ذهنية واخرى نقلية تثبت هذا(٧):

أ ـ الأدلة الذهنية.

١ – لاينكر أن النحاة عاصروا النساطرة من تراجمة الكتب عن السريانية، ولكن ليس من الضروري أن يكونوا قد اطلعوا على آثارهم، فكثيراً مايتعاصر المثقفون ولايطلع أصحاب اختصاص على مايكتبه أصحاب اختصاص آخر، ولاسيما أن المنطق اليوناني كان ينظر إليه على أنه دخيل على الحياة الإسلامية. هذا إلى جانب عدم توافر الوسائل الحضارية التي تسهل سبل الاطلاع على نتاج الآخرين كالطباعة مثلاً.

٢ – كان النحاة يقرؤون الكتب على أربابها، وهم قلما يقرؤون الكتب دون معلم خوفاً من التصحيف أو التحريف، ولايعرف أن نحوياً من النحاة عاصر منطقياً في القرنين الأول والثاني. ومايقال عن الصلة بين الخليل وحنين بن اسحاق إنما هو مجرد وهم وقع فيه بعض الباحثين.

٣ – كان النحاة ينقلون كلام شيوخهم فلِمَ لم يذكر النحاة الأوائل شيوخهم من المناطقة الذين أخذوا عنهم، بل إن السيرافي، في مناظرته لـ(متّى بن يونس) ينكر هذا الإتصال والتأثر.

٤ – كان المنطق اليوناني والثقافة اليونانية عامة يمثلون ثقافة خاصة تمتزج بالإلهيات والديانة اليونانية التي تخالف الدين الإسلامي والروح الدينية التي تسري في الدراسات الفكرية والروحية التي قام بها الفقهاء وعلماء الكلام، ثم علماء النحو واللغة. ويرجح أن ماترجم في هذه الفترة من منطق أرسطو لم يكن يتعدى دائرة المختصين بالدراسات اليونانية من السريان والفرس وبعض العرب.

٥ – من المعروف أن النحو العربي قام على استقراء لغة العرب معتمداً على السماع ثم القياس وهو في غالب أمره قياس لغوي يغاير قياس أرسطو.

وأخيراً فإن هذا لايعني أن النحاة المتأخرين بعد القرن الخامس لم يتأثروا بمنطق أرسطو، ولكنهم مع هذا لم يتعدوا حدود الأقيسة والاحترازات، ولم يستطيعوا أن يأتوا بالنحو الذي نجده عند علماء المنطق أمثال الفارابي وابن سينا.

ب – أدلة نقلية.

وهذه الأدلة تثبت أن النحاة كانوا يجهلون هذه الصلة بين النحو والمنطق اليوناني حتى القرن الرابع للهجرة. فابن فارس مثلاً يقول: «وزعم ناس يتوقف عن قبول اخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو». ثم قال: «وهذا

كلام لايعرج على مثله وإنما تشبه القوم آنفاً (يعني الفلاسفة) فأخذوا من كتب علمائنا وغيروا بعض الفاظها»[٨].

فابن فارس هنا لايجهل الصلة فحسب، بل إنه ليدَّعي أيضاً أن الفلاسفة أخذوا النحو عن العرب.

وعلى الرغم من أن (أباسعيد السيرافي) كان على علم بمنطق أرسطو ومصطلحاته فهو يشير إلى هذا الانفصال إشارة واضحة حيث يقول: «إذا كان المنطق وضعه رجل من اليونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها ومايتعارفونه بها من رسومها وصفاتها، فمن أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه حكماً لهم وعليهم ماشهد لهم قبلوه ومأنكره رفضوه؟»[٩].

ولم يكتف أبو سعيد بمناظرته بهذا بل هاجم المنطق وشك في دقة نقله من اليونانية إلى السيريانية ثم من السريانية إلى العربية، وذهب إلى أن أصول الفقهاء خير من أصول المناطقة، فقال لابن بشر: «وأنت لو عرفت العلماء والفقهاء ومسائلهم ووقفت على غورهم في فكرهم وغوصهم في استنباطهم وحسن تأويلهم لما يرد عليهم وسعة تشقيقهم للوجوه المحتملة، والكتابات المفيدة والجهات القريبة والبعيدة، لحقرت نفسك وازدريت أصحابك»[١٠].

ثم إنه يجد النحو العربي مبنياً على لغة العرب مستنبطاً من أصولها حتى ليعده ضرباً من المنطق، يقول: «والنحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة»[١١].

ولو كان النحاة الأوائل قد أخذوا مناهج المنطقة في نحوهم لما خفي ذلك على (متَّى بن يونس)، ولفاخر به (أباسعيد) وجعله سبباً يرد به عن نفسه مانزل به في مجلس الوزير ابن الفرات.

ويؤيد هذا أقوال للزجاجي، فهو لايقبل تعريفاً للاسم قدمه أحد النحاة، يقول: «وليس هذا من ألفاظ النحويين ولا أوضاعهم، وإنما هو من كلام المنطقيين، وإن كان تعلق به جماعة من النحويين، وهو صحيح على أوضاع المنطقيين ومذهبهم لأن غرضهم غير غرضنا ومغزاهم غير مغزانا»[١٢].

وقصة الأعرابي الذي مر بجماعة من النحويين وهم يتحدثون في النحو قصة مشهورة، إذ قال: «أراهم يتحدثون عن كلامنا بكلام ليس من كلامنا».

ونحن إذا ألقينا نظرة على طبيعة النحو العربي وطبيعة النحو اليوناني والدراسات النحوية العربية واليونانية تبين لنا أنه لاتأثر ولاتأثير. فطبيعة التقسيم الثلاثي للكلام

عند أرسطو يختلف عن طبيعة التقسيم الثلاثي كما وجدناه عند سيبويه. ثم إن أرسطو لم ينظر إلى اللغة نظرة نحوية، وإنما نظر إليها نظرة فلسفية، ومن السهل أن يهتدي الباحثون العرب إلى هذا التقسيم الذي عهدناه في نحونا لأنه واضح في كل لغة، ولأن اهتمامهم في بداية الأمر كان منصباً على فهم الإعراب صيانة للألسنة من اللحن الذي كان يؤرقهم لتعلقه بالقرآن الكريم خاصة، فملاحظتهم للإعراب تجعلهم يقفون أمام ظاهرة لايمكن أن تخفى وهي التغييرات التي تطرأ على أواخر بعض الكلمات وثبات أواخر كلمات اخرى، ومن السهل أن تنكشف لهم صفات كل من النوعين وأن يميزوا بين كلمة تدل على حدث وعمل، واخرى تدل على ذات، وثالثة تدل على شيء وهي معزولة عن بناء الجملة لأن طبيعة اهتمامهم تؤدي حتماً إلى هذا التقسيم.

ثم إن نظرة أرسطو إلى الحدث وهو (الكلمة) في تقسيمه تختلف عن نظرة النحويين إليه، فهو عنده ماليس بمادة ولكنه لايوجد إلا بها كاللون والصورة وهو - في معنى آخر - ماليس من ماهية الشيء كالقعود الذي ليس ملازماً للقاعد مثلاً. وقد فهمها المترجمون القدماء إذ ترجمها (حنين بن اسحاق) بكلمة «عَرَض»[١٣].

وزعم المستشرق (موكس) أن سيبويه ينفي أن يكون للحرف معنى[١٤]. وفي هذا مجانبة للواقع. فسيبويه والنحاة بعده ينيطون بالحروف معاني كثيرة كالإستفهام والشرط والنداء ويصرحون بهذا ففي كتاب سيبويه: «فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، ليس باسم ولافعل». وقال: «وأما ماجاء لمعنى وليس باسم ولافعل فنحو: ثم، وسوف، وواو القسم، ولام الإضافة»[١٥].

وفي كلام الفارابي التالي مايقطع بأن التقسيمات اليونانية للكلام تختلف عن تقسيمات النحويين العرب. قال في كتابه «**الألفاظ المستعملة في المنطق**»[١٦]: «إن الألفاظ الدالة منها ماهو اسم، ومنها ماهو كلم - والكلم هي التي يسميها أهل العلم باللسان العربي الأفعال - ومنها ماهو مركب من الأسماء والكلم».

وقد استدرك الفارابي غير مرة وبين أن كلامه في النحو إنما يجري فيه مجرى اليونان لامجرى النحويين العرب من ذلك قوله: «فلذلك لاينبغي أن يستنكر علينا متى استعملنا كثيراً من الألفاظ المشهورة عند الجمهور دالة على معان غير المعاني التي تدل عليها تلك الألفاظ عند النحويين»[١٧].

وهكذا نجد أن طبيعة الدراسات النحوية أو اللغوية اليونانية تختلف عن طبيعة الدراسات النحوية العربية، وإنما تأثر النحو العربي بعلم الكلام والفقه ضمن البيئة الثقافية العربية الأصيلة، فقد كانت حلقات علم الكلام تعقد في وقت مبكر من الحياة

الإسلامية ترجع به إلى نهاية العصر الأموي، فقد بدأ الإمام (أبوحنيفة) حياته الثقافية ناظراً في علم الكلام ثم تحول منه إلى الفقه حتى أراده بعض الخلفاء الأمويين على القضاء.

وقد وقف علماء الكلام على آراء المناطقة اليونان في رحلة زمنية مبكرة ثم رأوا في طرائق الاستدلال اليونانية نقصاً وعيوباً فخالفوها وأضافوا إليها أشياء جديدة حتى تمت فيما بعد أصول تختلف عن أصول المناطقة في فهم القياس والعلة وماأشبه ذلك، وقد تأثر النحو بهذه الأصول تأثراً مباشراً، وعلة هذا شيئان: **الأول**: أن علماء الكلام كانوا منتشرين في كل مكان وكانت آراؤهم تذاع في حلقات العلم في المساجد وبلاطات الأمراء، ولاسيما في القسم الأول من العصر العباسي.. **والثاني**: أن بعض النحويين شاركوا في علم الكلام. ففي القرنين الأول والثاني عرف (الفراء) و(قطرب) بالاعتزال. وفي القرنين الثالث والرابع كان (السيرافي، والرمّاني، والفارسي، وابن جني) من المعتزلة. وعرف (الزمخشري) بذلك وشهر به.

على أنه ليس من اللازم أن يكون النحوي معتزلياً حتى يكون متأثراً بطرائق الاستدلال والاحتجاج التي أخذ بها علم الكلام، فآراء (الخليل وسيبويه) تدل على عناية بالغة بالعلة والقياس وبالجدل أحياناً مما يشير إلى تأثرهما بالمتكلمين عن طريق الفقه ورجاله أمثال أبي حنيفة(١٨).

وقد صرح (ابن جني) غير مرة باستعانته بالدراسات الكلامية، فذكر في مقدمة «**الخصائص**» أنه عمل كتابه على مذهب أصول الكلام والفقه(١٩).

غير أن تأثير الفقه ودراساته في النحو كانت بالغة جداً منذ العصور الأولى فقد كان النحاة يتطلعون إليه على أنه علم أصيل في الحياة الإسلامية، ولذلك كانوا يهتمون به وينهلون منه. وكتاب سيبويه مملوء بالقياس والعلل «ويذكرنا عمله بتفريع الحنفية، وتعليلها وقياسها»(٢٠).

وقد غزت الآراء الفقهية دراسات النحويين كما غزت أساليبهم أدلة النحاة بقوة وعنف ويكفينا أن نستدل هنا مثلاً من ابن جني، فهو يتحرج في أمور اللغة كما يتحرج الفقيه في أمور الدين، فكما أن الفقيه يبيح عند الضرورة الملزمة أن يرتكب الإنسان أخف القبيحين فحشاً، كذلك يجيز (ابن جني) مثله في اللغة، يقول: «اعلم أن هذا موضع من مواضع الضرورة، وذلك أن تحضرك الحال ضرورتين لابد من ارتكاب إحداهما.. فينبغي حينئذ أن تحمل الأمر على أقربهما وأقلهما فحشاً»(٢١).

كذلك فعل (أبوالبركات الأنباري) في كتاب «**الإنصاف**»، إذ صرح بأنه مبني على أشباهه من كتب الفقه كما ورد ذلك في مقدمة كتابه الذي نقل عنوانه من كتاب لابن

سعيد محمد بن يحيى النيسابوري. وقد صنف السيوطي كتباً نحوية ثلاثة على مناهج الفقه هي: (همع الهوامع)، و(الأشباه والنظائر)، و(الاقتراح).

والذي نخلص إليه من هذا كله النتيجتان الآتيتان:

١ - لم يؤثر المنطق الصوري تأثيراً مباشراً في القرون الأولى من تاريخ النحو العربي ولكنه بدأ يتدخل في أمور اسلوبية استدلالية بعد القرن الرابع، ولكن القرون المتأخرة شهدت امتزاج المنطق الصوري بالدراسات الفقهية والنحوية.

٢ - كان تأثير علم الكلام بالنحو مباشراً، وكذلك تأثير الفقه، وكان أثر الفقه أبلغ وأعمق وربما تساويا في تراث نحوي عظيم هو (ابن جني)، ولكن في العصور المتأخرة أخذت مصطلحات أصول الفقه وتبويبه وتصنيفه تملأ صفحات كتب النحو.

المؤثرات الهندية.

كان الهنود أسبق من العرب في مجال الدراسات اللغوية، بل ربما كانوا أسبق من اليونانيين كذلك في هذا المجال. وقد أثرت عن الهنود دراسات في فروع علم اللغة المختلفة تتناول الأصوات والاشتقاق والنحو والمعاجم يرجع أقدمها إلى فترة مجهولة لنا ويرجع أقدم ماوصل منها إلى القرن الخامس ق.م.، في حين أن الدراسات اللغوية العربية لم تبدأ إلا بعد ظهور الإسلام[٢٢].

ولامجال للشك في وجود صلات قديمة بين الهنود والعرب يرجع بعض منها إلى فترة ماقبل الإسلام، وبعضها الآخر إلى فترة مابعد الإسلام وقبل فتح الهند، ومعظمها إلى مابعد الإسلام، وبعد فتح الهند.

وقد كانت هنالك في العصر الجاهلي ثلاث طرق رئيسية تربط الهند بالجزيرة العربية طريق بري، وطريقان بحريان. أما الطريق البري فكان يصل الهند بأهم مراكز الشرق كسمرقند ودمشق وبغداد. وأما الطريقان البحريان فكان أحدهما ينتهي إلى موانئ الخليج العربي، وثانيهما يدور حول بلاد العرب ويبلغ موانئ البحر الأحمر[٢٣].

وحين قويت الصلة بين الهنود والعرب وتوغل المسلمون في بلاد الهند وجدوا حضارة قديمة أوغل في القدم من حضارتهم، فاتجهت أنظارهم إليها وحاولوا الاستفادة منها ونقل مايرونه مفيداً إلى اللغة العربية.

وفي العصر العباسي حين نشطت حركة الترجمة اتصل العرب بالتراث الثقافي الهندي على مختلف فروعه، والذي يهمنا هنا النشاط اللغوي أو النحوي على الرغم من وجود نقاط التقاء في العديد من الدراسات الصوتية[٢٢].

أما النقاط التي تناولها العرب بالدرس والتقسيمات التي ذكروها وهي موجودة عند الهنود فتتمثل فيمايأتي:

١ – تقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولافعل.

٢ – تعريف الكلمة بأنها اللفظ الموضوع لمعنى مفرد أو بأنها اللفظ المستقل الدال بالوضع.

٣ – التمييز بين الحرف الأصلي والحرف الزائد في الكلمة عن طريق القول إن مايثبت في تصاريف الكلمة المختلفة يكون أصلياً ومايسقط في بعض التصاريف يكون زائداً، وكذلك الحديث التفصيلي عن أحرف الزيادة وعددها وأماكن وقوعها.

٤ – اختلافهم في موضوع الاشتقاق فمنهم من ضيقه، ومنهم من وسعه حتى أخذ يلتمس وجهاً لكل لفظ ولو كان أعجمياً أو معرباً. ويظهر أثر هذا الخلاف في الأعلام فمنهم من عدها كلها مشتقة ومنهم من قسمها إلى منقول ومرتجل.

٥ – الخلاف حول الحروف.. هل لها معان في ذاتها مستقلة عن الأسماء، والأفعال أولاً.

٦ – أفراد نوع من الأسماء له خصائص الأفعال باسم خاص به وهو «اسم فعل»، مثل: هيهات، وشتان، وأف، وصه، ومه...

٧ – النظر إلى نوع الحروف من حيث الصحة والاعتلال حين الحديث عن أصول الكلمات وإفراد كل بالذكر[٢٥].

هذه هي أهم نقاط الالتقاء في الدراسات النحوية والصرفية. فهل هي توارد خواطر أو تناقل أفكار عن طريق التأثر والتأثير؟

تتلخص الآراء التي قدمت في الموضوع حتى الآن في ثلاثة وهي:

١ – الرأي الذي يرجع أو يقطع بوجود تأثير هندي.

٢ – الرأي الذي لايرجع أو يقطع بوجود تأثير هندي، ولكن يرى احتمال وجود هذا التأثير.

٣ – الرأي الذي ينفي وجود أي تأثير هندي.

أما الرأي الأول فقد تبناه الدكتور عبدالرحمن أيوب بحماسة شديدة في محاضراته التي ألقاها بكلية دار العلوم في عام ١٩٦٧ – ١٩٦٨م.. فهو يرى أن سيبويه قد تأثر في تبويب كتابه بالطريقة الهندية في التأليف، أما المتأخرون فقد تأثروا بالمنطق الإغريقي[٢٦].

وأما الرأي الثاني، فقد اختارته دائرة المعارف الإسلامية التي تقول: «كان الخليل

أول من صنف معجماً عربياً هو كتاب «**العين**»، والظاهر أنه رتبه على حروف الهجاء عند نحاة السنسكريتية، وهي التي تبدأ بحروف الحلق حتى تصل إلى حروف الشفة»(٢٧).

ومن دعاة الرأي الثالث - فيما يتعلق بالنحو فقط - الدكتور شوقي ضيف، الذي ينفي وجود أي مؤثر أجنبي. وهو يؤسس فكرته على بناء النحو العربي على نظرية العامل ولاوجود لها في أي نحو أجنبي(٢٨).

ولكن ماطبيعة الدراسات النحوية الهندية؟.

يقول (شاكر أفارتي): «إن النحو السنسكريتي يعتبر نظاماً قائماً بذاته يعتمد إلى حد كبير على المبادئ الفلسفية»(٢٩).

وبعد، نستطيع أن نقول إنه قد يكون هناك تأثير هندي من نوع ما ولكنه تأثير جزئي ومحدود جداً، ولم يكن شاملاً في وقت من الأوقات، وأنَّى يكون شاملاً وهو يتعلق بنوع من الدراسات ذات طابع خاص لارتباطها بالدين.

ولقد كان المسلمون الأولون شديدي الحساسية في كل مايتعلق بشؤون العقيدة نافرين من ربط الإسلام ومباحثه بدين قديم أو عقيدة سابقة.

ولقد كانت نشأة الدراسات اللغوية عند الهند نشأة دينية، وكانت الحال كذلك عند العرب فقد نشأت في أحضان الدين وفي ظل القرآن الكريم، وكلام الرسول ﷺ، ولم يكن من المستساغ حينئذ أن يغترف العرب من دراسات السابقين في الميدان نفسه، وينسجوا على منوالها حتى لايطبقوا أحكاماً ارتبطت في أذهان المسلمين بالوثنية وتعدد الألهة والزهد في الحياة الدنيا، وهي صفات ينكرها الإسلام أشد الإنكار.

يقول (رالف لنتون): «تختلف النظرة الهندوسية إلى العالم عن نظرة الإسلام اختلافاً كبيراً. بل تفصل بينهما هوة لاجسر لها فوقها، ومن الصعب جداً أن نجد مثلهما مدنيتين أكثر تبايناً واختلافاً»(٣٠).

من خلال استعراضنا للأثرين الهندي واليوناني يتضح لنا أن النحو العربي نشأ نشأة عربية خالصة بدافع ديني حماسي، درس العربية في منابتها الأصلية، واستقرى ظواهرها المتوارثة مستنداً إلى طرائق في البحث تعتمد على أصول الفقهاء وعلى معيارين عربيين كبيرين وأصيلين في المنهج العربي هما: السماع، والقياس.

ولكن المؤثرات الأجنبية تسربت إلى «مناهج» المتأخرين، وهذه سنة التطور الحضاري في جميع ثقافات العالم.

الهوامش:

١ - انظر: «**تاريخ الفلسفة في الإسلام**»، تأليف (دي بور)، ترجمة محمد عبدالهادي، ط ٤، ص ٥٥.
٢ - «**ضحى الإسلام**»، لأحمد أمين، ٢٩١/١، القاهرة.
٣ - **في اللغة والأدب**، د. ابراهيم مدكور، سلسلة اقرأ، ص ٤٥، دار المعارف، ١٩٧٠.
٤ - «**النحو العربي ومنطق أرسطو**»، مجلة كلية الآداب الجزائرية، الجزء الأول، ص ٧٢، عام ١٩٧٠م.
٥ - **في اللغة والأدب**، د. ابراهيم مدكور، ص ٤٤.
٦ - الكتاب ٢/١، تحقيق عبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة.
٧ - «**أصول الاحتجاج في النحو العربي**»، د. محمد خير الحلواني، ص ٣٣٢، جامعة تشرين، اللاذقية - سورية، ١٩٧٤م.
٨ - الصاحبي، ٤٢.
٩ - «**معجم الأدباء**»، ياقوت الحموي، ١٩٥/٨، دار المأمون، القاهرة.
١٠- **المصدر السابق**، ٢٠٥/٨ - ٢١٥.
١١- **المصدر السابق**، ٢٢٤/٨ - ٢٢٥.
١٢- «**الإيضاح**»، للزجاجي، ٤٨، دار النفائس، بيروت.
١٣- «**النحو العربي ومنطق أرسطو**»، عبدالرحمن الحاج صالح، في مجلة كلية الآداب، الجزائر، ١٩٦٤م، الجزء الأول، ٧٧ - ٨٠ - ٨١.
١٤- **المصدر السابق**، /٧٩.
١٥- الكتاب ٢/١.
١٦- تحقيق حسن مهدي. المطبعة الكاثوليكية، ص ٤١، بيروت، ١٩٦٨م.
١٧- **المصدر السابق**، /٤٤.
١٨- «**أصول الاحتجاج**»، د. الحلواني، ٣٣٩ - ٣٤٠.
١٩- الخصائص ٢/١، ٣، طبعة مصر.
٢٠- «**ضحى الإسلام**»، أحمد أمين، ٢٩٢/٢، القاهرة.
٢١- الخصائص ٢١٢/١.
٢٢- **البحث اللغوي عند الهند وأثره على اللغويين العرب**، د. أحمد مختار عُمر، المقدمة، ص ٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢م.
٢٣- «**حضارة الهند**»، جوستاف لوبون، ص ٢٣٧. و«**حضارة العرب**»، له أيضاً، ص ٣٣٥، ترجمة عادل زعيتر.
٢٤- «**البحث اللغوي عند الهنود**»، ص ١٢٧.
٢٥- **المصدر السابق**، ص ١٣٢ - ١٣٣.
٢٦- محاضرات في علم اللغة، عبدالرحمن أيوب، ص ٧، القاهرة، ١٩٦٧م.
٢٧- دائرة المعارف الإسلامية، مادة الخليل بن أحمد.
٢٨- «**المدارس النحوية**»، شوقي ضيف. ص ٢٠، دار المعارف - مصر.
٢٩- نقل رأيه د. أحمد مختار عمر في كتابه «**البحث اللغوي عند الهنود**»، ص ١٥٦، نقلاً عن كتاب (شاكر أفارتي)، «**فلسفة النحو السنسكريتي**».
٣٠- «**شجرة الحضارة**»، رالف النتون، ص ٢٠٠، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦١م.